العلامات الأخرى

قصة بقلم محمد زفزاف

ثم أصر على أن ينظر في عيني مباشرة . وأخذ يبتعد شيئا فشيئا مني وأنا مسمر على المقعد البارد وقهوتي قد انتهت . تجاوز الطريق وكيسه فوق كتفه . لا بد أن كيسه مليء بالتبن أو النخالة. لا يهم . بل ان وزن الكيس لم يكن ثقيلا ، لذلك كان الرجل يمشي بسرعة دون حتى أن يحس بالثقل الذي فوق ظهره . وعندما بلغ موقف الاوتوبيس : اتكأ على شجرة من الساج التي زرعتها المصالح البلدية أيام الحماية . وسمعت رجليه وهما تدوسان اوراق الساج الصفراء المنتشرة على الطريق . كانت الشجرة باردة عارية فوق راسه ، موزعة أغصانها في فضاء أزرق صاف جدا . ثم ترك الكيس يهبط من فوق ظهره فلا يحدث أي صوت . وعندما تصورت ان جسمه أعرض من شجرة اخذ ينظر جهتي فلم أعره اي اهتمام على الاطلاق .. وانما اخذت اضرب الارض بحذائي ضربات خفيفة لم تكن تعني شيئا سوى أنها نوع من التعويض . عن أي شيء !؟ لا أدري. ربما عن انفعال مكبوت . وفكرت فيما اذا كان الجابي لن يسمح له بالصعود الى الاوتوبيس مع كيسه . لقد كان واقفا الان وحده . اضخم من شجرة ، وأكبر سنا منها . كان ابي كذلك : أضخم من شجرة واكبر سنا منها . الا أنه لم يكن ابي ولا يمكن ان يكون .ومع ذلك فقد ظل الرجل ينظر في وجهي نظرات متفحصة مليئة بالوهم . وقد افزعني ذلك ، خصوصا وان ابي لا يمكن ان ينهض من قبره ولا ان يحمل كيس تبن أو نخالة لعدم حاجته لذلك . كان واقفا الآن وحده ينتظر مجيء الاوتوبيس . ولم يكن بينه وبين الشجرة الا سنتيمترات من الهواء . وخلفه حائط يتهدم لكراج قديم .وحتى شارة الوقوف لوت عنقها وبهتت صفرتها ، بل امحت تماما . ورفع عينيه الى أعلى وحاول أن يقرأ أو يتهجأ . فجاءت امرأة ملتفة في جلبابها ووقفت الى جواره . وتساءلت لماذا كان قبل لحظات يدور ويدور حولي ويتفرسني بذهول .كانت نظراته تتهمني ،بل تريد ان تقول شيئا . وتخيلت فيه ابي الذي فقدته ، ولم أعد أختزن من صورته في الذاكرة الا ملامح باهتة ، بل غير موجودة على الاطلاق . ولربما كان الرجل يتخيل فيّ ابنه . الا ان ابي لم تكن قامته طويلة وعريضة بهذا الشكل . كانت سمات الوجه متشابهة فقط .وحاولت الا أخاف والرجل يدور حولي . كانت صورة الموت فوق كتفه ، وفي وجهه ، وفي انحناء قامته .ولقد افزعني ان يكون مثل ابي .

غص موقف الاوتوبيس بالناس ، واختفت المرأة المجلببة فلم تعد بالقرب من الرجل . اصبحت وسط الزحمة ، الا انه ظل يلوح لي من بعيد ، بالقرب من الشجرة ، ووراء الكراج القديم .

قلت : ـ انك تشبه أبي .

ـ لا أدري .

ـ بل انك تشبهه .

ـ لا أدري .

ـ ان لكما نفس الملامح . الفرق بينكما انه لم يكن يحمل كيس تبن فقط فوق كتفه . لم تكن لنا دواب .

ـ لا أدري .

ـ لماذا تتفرس فيّ ، وتدور حولي . وانا اشرب قهوتي ؟

ـ لا أدري .

وأخذت لا أدري ولا أدري تتكاثر وتنتشر في الفضاء من حولي. كانت لا ادري جالسة معي في المقهى ، وموجودة في فنجان القهوة ، وفي السجائر التي احترقت كلها قبل لحظة .

أخذ الناس يتجمعون وقد تأخر الاوتوبوبيس . وصار الرجل وحده ينفصل عنهم جميعا . ابتعد عن الشجرة وجرر كيسه على الارض . لا شك انه مليء بالتبن او النخالة . وأردت ان اسأله عن محتوى الكيس لكني خفت من لا أدري . فقررت أن اصمت ، واحاول فقط ان اجد علامات صغيرة قد تكون الدليل القاطع على ان الرجل ليس ابي . ورغم يقيني الكامل بان الميت لا يعود ، فقد كان التشابه بين الرجلين لا شك فيه . ولما أتى الاوتوبيس تصعد كل الناس الا الرجل . عاد بالقرب من الشجرة واتكأ عليها ، ورفع قدمه ووضعها فوق الكيس . ثم رأيته يدخل يديه في ثنايا ثيابه ويخرج شيئا يفرغه على ظهر كفه . وبحركة خفيفة اعاد ذلك الشيء الى مكانه، في حين رفع كفه المحدودبة الى أنفه وعطس بعد ذلك . لا شك انه مدمن على النشوق . ثم سألت الرجل من جديد ، والاكيد انه لم يكن يسمعني بالرغم من لا أدري .

ـ يبدو أنك تحب النشوق .

ـ لا أدري .

ـ فقط أردت أن أقول انك لست أبي . كان رحمه الله يدمن على الكيف . وكان يهزأ بمن يتناول النشوق . هذا هو الدليل القاطع على انك لست أبي . أريد شيئا من النشوق لاتأكد من انه نشوق وليس كيفا .

وقال الرجل بعد ذلك :

ـ لا أدري .. لكني على كل حال لست اباك .

ورأيته هذه المرة ينظر جهتي وقد أزاح قدمه من فوق كيسه . كان قذرا مرفع الثياب ابتعد عن الشجرة .وسار فوق الرصيف المقابل لكي يواجهني مباشرة . ثم انتظرت أن يعبر سيل السيارات الفاصل بيننا . ورأيته يزحف كسلحفاة نحوي . ارتعشت وخفت ان يكون أبي . لكنه لا يمكن ان يكون . أخذ الرجل يقترب ويقترب وانا مسمر على المقعد البارد ، ولما صار أمامي فتح فمه بتراخ :

ـ ابني . هل تعطيني ثمن تذكرة الاوتوبيس ؟ ليس معي ... ليس معي ...

اجبته بجفوة :

ـ انا فقير ، ليس معي نقود .

لم يقل شيئا ، بل مشى في الطريق السفلي يجر قدميه وكيسه. وسمعته وقد اختفى بصفة نهائية يقول : ربما كنت اباك .. لا أدري.

الدار البيضاء (المغرب)